الدكتور محمد مصطفى زيادة

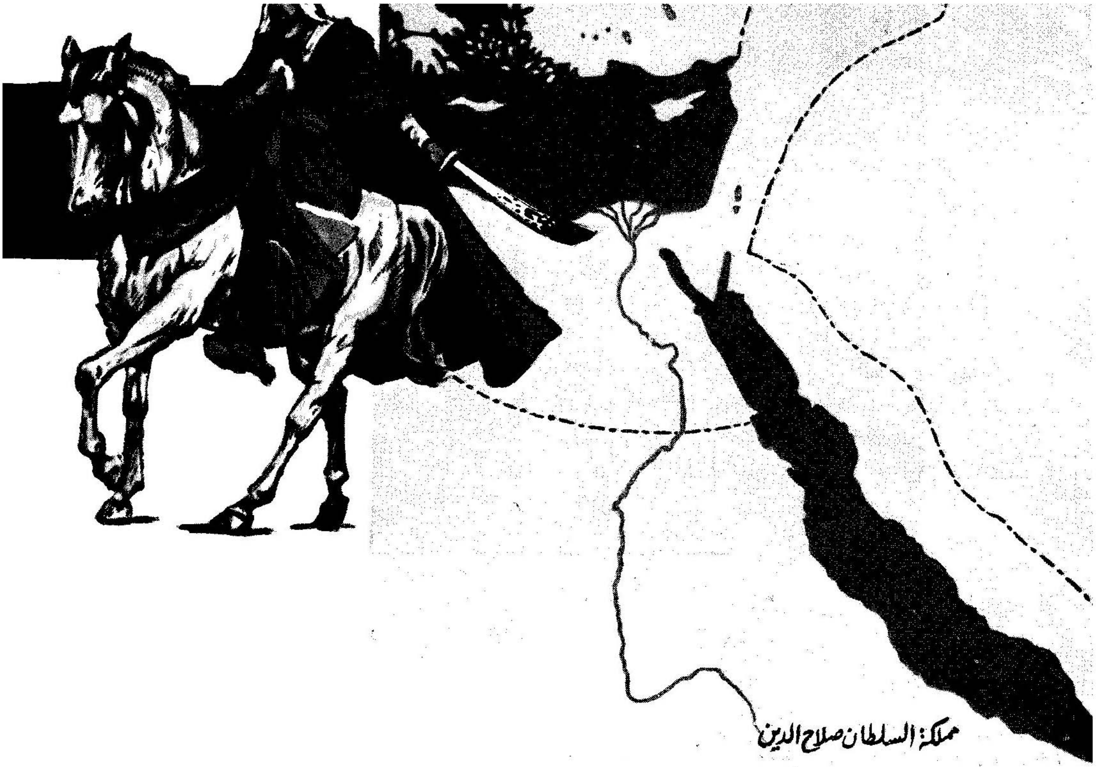
يوم حطين

مجلة العربي

العدد رقم ٥٩

١ أكتوبر ١٩٦٣

وزارة الإعلام–الكويت



• صلاح الدين يسقي ملك الافرنج ماءً باردًا بعد أسره ،

بقلم : الدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة

في يوم السبت الرابع من شهر يوليه سنة ١١٨٧ م ، الموافق يوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ ، احتدمت واختتمت معركة حربية بين جيوش السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي ، وجيوش مملكة بيت المقدس وسائر الامارات الصليبية بالشرق ، عند مرتفع بركاني قديم ، تقول الروايات المسيحية انه الموضع الذي ألقى عنده المسيح عليه السلام موعظة الجبل .

واسم ذلك الموضع تل حطّين ، أو قرون حطّين ، وهو على مسافة خمسة أميال تقريباً من الشمال الغربي من مدينة طبرية ، ويمر عليه المسافر العابر من طبرية الى عكّا ، فلا يرى من ماضي مجده العالي سوى صمت صخري مستديم ، تكسوه أشعةُ شمس لافحة ، لا سيما ، حين يكون الوقت من قيظ الصيف ، في مثل يوم وَقعة حطين .

غير أن لذلك الصمت الحاضر مناقض من ضوضاء هادرة صاخبة ماضية ، يسمعها قارىء المراجع التي تصف ذلك اليوم الذي سلك الصليبيون فيه مسلك الباحث عن حتفه بظلفة ، على قول المثل العربي ، أو مسلك الحافر قبره بيده ، على قول المثل الأروبي .

صلاح الدين يمهد لوحدة اسلامية جامعة ترفع السيطرة الصليبية عن فلسطين

ولنرجع الى الوراء بضع سنين قبل

يوم حطين

اليوم الفاصل بين المسلمين والصليبيين ..

• صلاح الدين يتأنى في حرب الصليبيين ، حتى يصنع جبهة موحدة من سائر المسلمين

ولكنه يضرب رقبة صاحبه بسيفه جزاء على غدره

ذلك اليوم ، حين كان صلاح الدين مشغولا باستكمال الجبهة الاسلامية المتحدة بالشرق الأوسط تحت رايته ، تمهيداً لما عقد النية على النهوض به من مشروع جهادى عام ضد السيطرة الصليبية فى فلسطين ، وحين كان الصليبيون يفترصون أية فرصة لشن حملة حربية سريعة أو أخرى على المراكز الصلاحية ، وصلاح الدين بدوره يعمل على مقابلة المثل بالمثل ، ويناوش الصليبيين هنا وهناك ، كلما سنحت له سانحة كافية لازعاج سلامتهم ، وذلك بعد أن ضمنت له مهارته الديبلوماسية وسياسته الاقتصادية ، نحو كل من الدولةالبيزنطية والجمهوريات الايطالية، حيدةَ تلك الدول بصدد ما قام به من أعمال ضد الصليبيين .

أمراء مسلمون يشيرون على الصليبيين بالاغارة على أطراف قوات صلاح الدين

ومن حوادث ذلك التصوير العام تركيز صلاح الدين جهوده الحربية والسياسية سنة ١١٨٢ م حول الاستيلاء على حلب والموصل وما بينهما من بلاد الجزيرة الفراتية . وقيام الصليبيين ، بناء على مشورة بعض أمراء تلك البلاد من المسلمين ، الكارهين لفكرة الجبهة الاسلامية المتحدة ، بالاغارة على أطراف صلاح الدين فى حوران وضواحي دمشق . ونادت فئة من زعماء الصليبيين وقتذاك بوجوب اتباع تلك المشورة والدأب على التوسع فى تلك الخطة الكفيلة فى نظرهم بتبديد القوى الأيوبية رويداً رويداً ، وتعطيل تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة أو تأجيلها الى حين .

((ارناط)) يبني اسطولا فى البحر الاحمر للهجوم على مكة والمدينة

وأول تلك الفئة فارس فرنسي الأصل ، قديم العهد بالحروب الصليبية وفلسطين، وهو ريجنالد

شاتليون أمير حصن الكَرَك الواقع فى الجنوب الشرقي من البحر الميت ، واسم ذلك الأمير فى المراجع العربية ارناط ، ويقال له كذلك البرنس .

ولذا لم يكد ارناط هذا أن يسمع بخبر مسير صلاح الدين شمالا نحو حلب فى تلك السنة (١١٨٢) حتى أخذ هو فى تنفيذ مشروع راوده منذ سنين ، وذلك بأن أعد سفناً حربية صغيرة نقلها أجزاء مفككة على ظهور الجمال الى رأس خليج ايلة (العقبة) حيث جعل من تلك السفن اسطولا قرصنياً لمفاجأة قوافل السفن التجارية فى البحر الأحمر ، والهجوم بعدئذ على مكة والمدينة براً ، اذا هو استطاع الى ذلك سبيلا .

واستولى ارناط أولا على ميناء ايلة ، وهي وقتذاك من ممتلكات صلاح الدين، ثم حاصر قلعتها بنفسه على حين أبحرت سفنه جنوبا ، وسارت على طول الساحل المصرى للبحر الأحمر ، وأخذت تغير على الموانيء المصرية حتى وصلت الى ميناء عيذاب(١) . وخربت سفن ارناط ذلك الميناء تخريباً شديداً ، وهو الميناء الرئيسي للتجارة المصرية الدولية بين الشرق والغرب منذ أوائل العصور الوسطى ، ونهبت ما به من سفن ومتاجر، ثم عبرت تلك السفن الى ساحل بلاد العرب ، واستولت على مراكب راسية بميناء الحوراء شمالي ينبع والمدينة ، وأبحرت من هناك الى رابغ ، وهي احدى موانيء مكة . ثم عادت تلك السفن الجريئة أدراجَها محمّلة بما اجتمع لها من أنهاب وأسلاب ، أملا فى الوصول بها الى البرنس ارناط بميناء ايلة .

حملة مصرية
تخلص بها البحر الاحمر من الصيلبيين

ونهض الأمير العادل محمد ، وهو أخو صلاح الدين ونائبه بمصر حين ذاك ، لاعتراض تلك السفن الصليبية الجاسرة ، وهي فى أول طريقها ، وأنفذ لذلك حملة بحرية مصرية أيوبية بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ . غير ان تلك الحملة التأديبية هجمت أولا على ارناط ، وهو لا يزال على حصار قلعة ايلة ، واضطرته الى رفع الحصار عنها والفرار الى حصنه بالكَرَك .

ثم أبحر حسام الدين بسفنه المصرية الأيوبية جنوباً من البحر الأحمر ، باحثاً عن السفن الصليبية ، حتى بغتها على مسافة غير بعيدة من ميناء الحوراء قبالة مكة ، وهي محملة بما نهبت وسلبت . واستولى حسام الدين على السفن الصليبية جميعها ، وعمد الى احراقها بمن فيها ، ولذا أخذ الصليبيون يلوذون بالساحل العربي شمالي مكة وجنوبها ووراءهم الجند المصرى الأيوبي والأعراب يقتلون ويأسرون .

وحملت السفن المصرية الأيوبية من أولئك الأسرى أعداداً كثيرة جيء بهم الى القاهرة ، وشهدهم الرحالة المغربى ابن جُبَير يطاف بهم فى شوارع الاسكندرية ، ووصف موكبهم وأخبار مغامرتهم الصليبية وَصْفَ شاهد عيان .

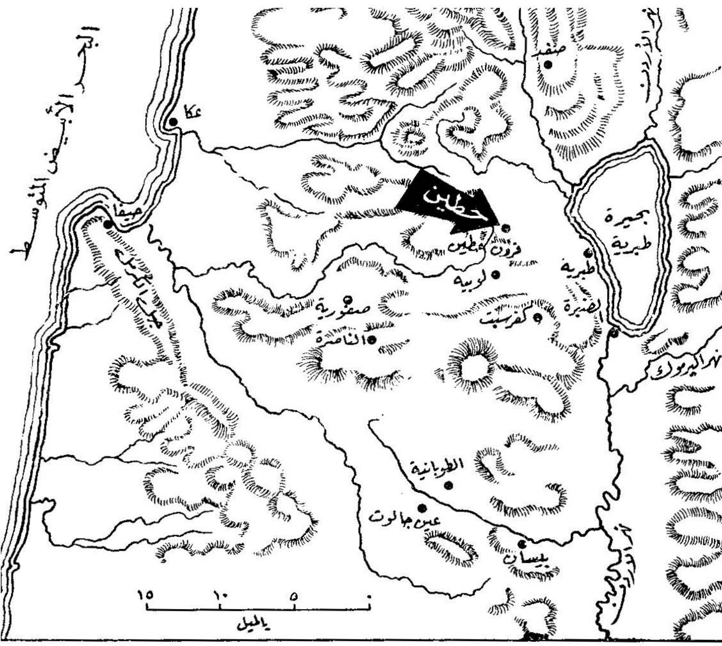
صلاح الدين يقسم لينتقمن من ارناط

على أن مصائر أولئك الأسرى لم تكن كل ما انتهت اليه تلك المغامرة العارمة من ذيول ، اذ المعروف أن صلاح الدين أقسم وقتذاك يميناً مُغَلَّظة لينتقمنّ انتقاماً شديداً من ارناط على اساءته الاعتدائية الخبيثة ، ولا سيما انه اعتدى سابقاً على أرض شبه الجزيرة العربية من ناحية البر حتى بلدة تمياء . والواقع ان الاقتصاص من ارناط بتخريب حصنه بالكرك ـ على الأقل ـ صار هدفا من أهداف صلاح الدين ، الذى اتجه بنفسه أكثر من مرة لتحقيق ذلك الهدف ، خلال مناوشاته التي اعتزم القيام بها هنا وهناك ضد الصليبيين تمهيداً لما عقد النية على النهوض به من مشروع جهادى نهائي عام ضد السيطرة الصليبية على فلسطين .

صلاح الدين يعود من حلب فيغزو فلسطين

ولذا لم يستقر المقام بصلاح الدين فى دمشق بعد عودته من حلب سوى خمسة وعشرين يوماً ، حتى زحف لغزو فلسطين فى جيش غير قليل ، مما يدل على انه أعد العدة لذلك الزحف منذ مدة طويلة ، أو فى سرعة تدعو الى الاعجاب ، ودخل صلاح الدين أرض فلسطين مجتازا نهر الأردن ، عند ملتقاه بالساحل الجنوبي من بحيرة طبرية ،

(١) مرفأ فى مصر على ساحل البحر الأحمر ، قرب الحدود السودانية ، وفى قبالة جدة



خريطة تبين مواضع تحرك الجيوش فى واقعة حطين

أى حيث جسر قرية الصنبرة ، وهي قرية على الطريق الرئيسي من شرق الأردن الى جوف فلسطين ، وسوف يمر عليها صلاح الدين مرة ثانية فى أحوال مشابهة مستقبلة . ثم وصل صلاح الدين جنوبا الى بيسان ، وانفذ منها دوريات من جيشه فى اتجاهات متعددة ، لتخريب الحصون والمعاقل الصليبية المجاورة ، ولاغراء جيوش مملكة بيت المقدس وتوابعها بأن تخرج لمواجهته ، على حين عسكر هو بمعظم جيشه حول بلدة الطوبانية وصهاريجها ذوات المياه الوفيرة الطيبة ، وهو ما كان يحرص على توفيره دائماً لعسكره .

الجيوش الصليبية تتحرك لملاقاة جيوش صلاح الدين

وتحركت جيوش مملكة بيت المقدس وتوابعها من مختلف المراكز الصليبية ، وتجمعت عند قرية صَفّورية ، وهي موضع ممتاز بمياه عذبة وأرض خضراء ، وسوف تجتمع الجيوش الصليبية عندها مرة أخرى فى المستقبل القريب . ثم تقدمت تلك الجيوش الصليبية جنوباً الى عين جالوت ، وعسكرت عندها ، وصارت بذلك وجها لوجه أمام جيوش صلاح الدين فى الطوبانية .

وظل الطرفان يترادبان على تلك الحال بضعة أيام حسوماً أى متتابعة . ثم عمد صلاح الدين الى فتح جناحي جيشه فى سرعة ابتغاء القيام بحركة خاطفة لتطويق المعسكر الصليبي حول عين جالوت ، واجتذاب الجيوش الصليبية الى الدخول فى معركة حربية مكشوفة . غير أن شيئا من ذاك أو ذاك لم يحدث ، نظراً لاحجام الصليبيين عن الحرب ، ولتقرير صلاح الدين العودة الى قواعده بدمشق .

صلاح الدين يسوى حسابه مع ارناط

على أن صلاح الدين لم يقنع بتلك النتيجة السالبة ، بل عرج فى طريق عودته على امارة الكرك ، ليسوى بعض حسابه مع البرنس ارناط. ودخل صلاح الدين بلدة الكرك نفسها ، واستولى عليها عنوة ولاذ البرنس بالفرار منها الى داخل حصنه المشهور ، حيث كانت حفلة عرس لقريب له تدق طبولها ودفوفها الموسيقية ، على حين أخذ صلاح الدين فى حصار الحصن ، والرمي عليه بحجارة منجنيقية على الجانب الذى يقام فيه الزفاف من الحصن ، من أجل خاطر العروسين . وما زال رجاله يعملون فى الرمى على الجوانب الأخرى ويهيلون أكوام التراب والصخر الى الخندق حتى أوشكوا على العبور الى الحصن فى سهولة ..

صلاح الدين ينسحب بانتظام ليستكمل تجميع القوى الاسلامية قبل الهجوم

وكاد المسلمون يعبرون بالفعل لولا وصول الملك

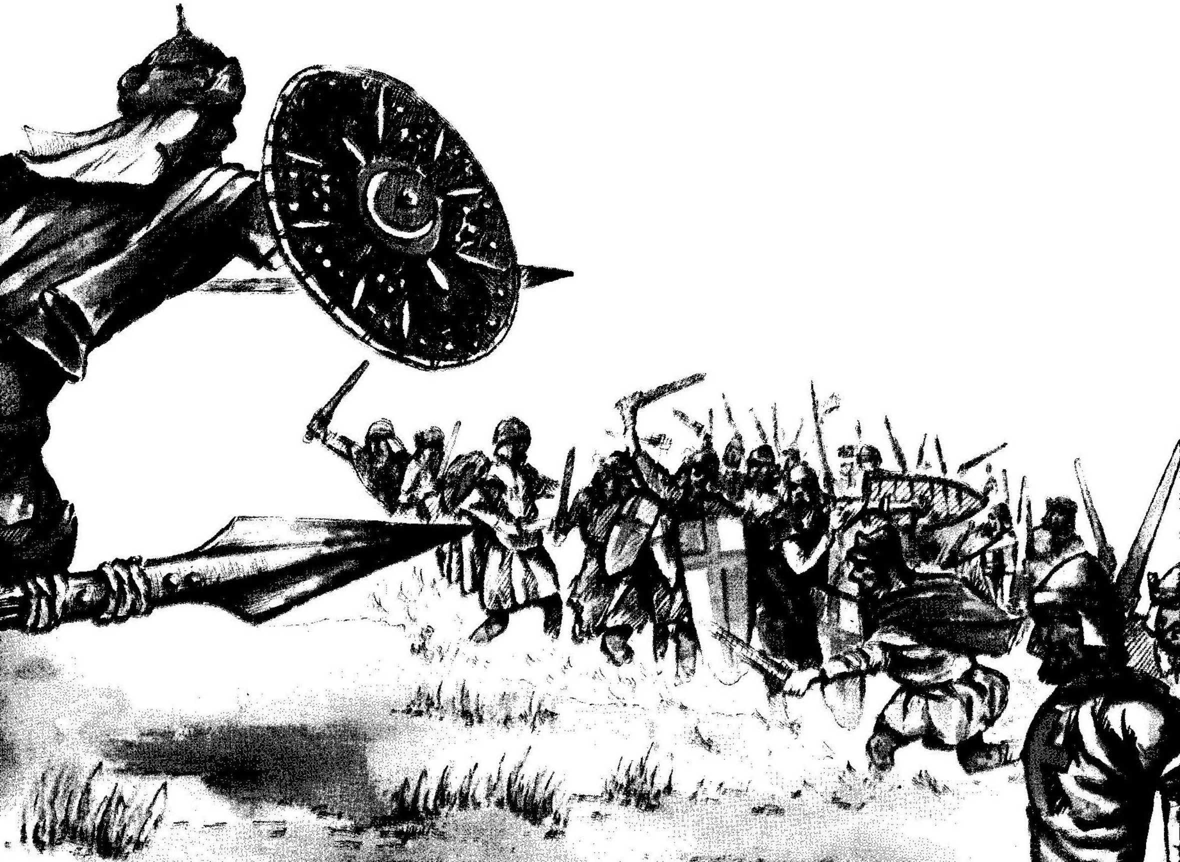
بلدوين الرابع، صاحب مملكة بيت المقدس بنجدة كبيرة رغم مرضه، وتقرير صلاح الدين أن ينسحب عن الحصن قبل أن تتسع دائرة الحرب الى ما لم يكن مستعداً له حتى وقتذاك ، لعدم استكمال توحيد القوى الاسلامية بالشرق الأوسط تحت رايته ، وهو ما شرطه على نفسه تمهيداً للدخول فيما عقد النية عليه من مشروع جهادى عام ضد السيطرة الصليبية فى فلسطين . ولذا رجع صلاح الدين الى دمشق فى أوائل ديسمبر سنة ١١٨٣ .

ثم عاد صلاح الدين الى حصار حصن الكرك وارهاق أميرها ارناط مرة أخرى فى خريف سنة ١١٨٤ ، غير أنه لم يلبث أن اضطر للمرة الثانية الى رفع الحصار عن ذلك الحصن ، نظراً لوصول نجدة من عند الملك المريض بلدوين الرابع مرة أخرى ، كما حدث من قبل ، ووصول الأخبار الى صلاح الدين بأن البقية الباقية من عملية توحيد القوى الاسلامية بالشرق الاوسط ـ وهي الموصل ـ تتطلب حضوره شخصياً الى بلاد الجزيرة .

موت بلدوين وهدنة

ثم مات الملك المريض بلدوين الرابع فى مارس ١١٨٥ ، وصارت مملكة بيت المقدس الصليبية تحت وصاية زعيم صليبي قديم الصداقة والصلة بصلاح الدين ، وهو الكونت رايموند الطرابلسي ، واسمه فى المراجع العربية القومص أو القمص ، وذلك ريثما يبلغ الملك الجديد بلدوين الخامس سن الرشد . واستطاع ذلك القومص أن يعاقد صلاح الدين على هدنة مدتها أربع سنوات ، استعان بها على تهدئة بعض نواحي الحزبية الضاربة وقتذاك فى مملكة بيت المقدس ، كما رحب صلاح الدين بدوره بتلك الهدنة التي أفسحت له من الوقت والجهد ما كفل تسوية مشكلة الموصل نهائياً ، بحيث عاد من بلاد الجزيرة الفراتية الى دمشق فى ابريل سنة ١١٨٦ ، وهو مطمئن الى اكتمال تكوين الجبهة الاسلامية

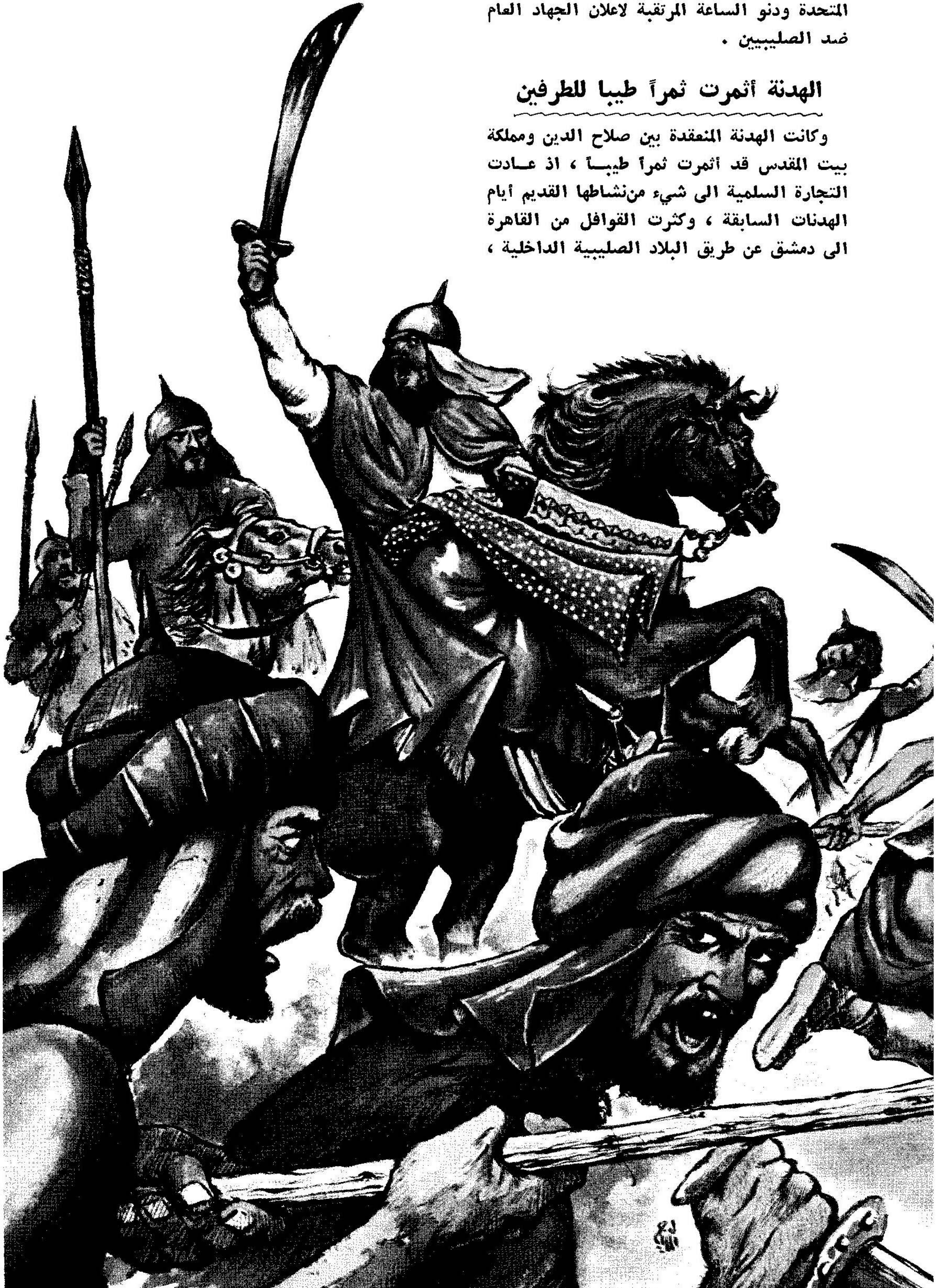
بريشة احمد الوردجى



المتحدة ودنو الساعة المرتقبة لاعلان الجهاد العام ضد الصليبيين .

الهدنة أثمرت ثمراً طيبا للطرفين

وكانت الهدنة المنعقدة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس قد أثمرت ثمراً طيبـاً ، اذ عـادت التجارة السلمية الى شيء من نشاطها القديم أيام الهدنات السابقة ، وكثرت القوافل من القاهرة الى دمشق عن طريق البلاد الصليبية الداخلية ،



ومن دمشق الى عكا وصُور وغيرهما من موانىء الصليبيين .

وشهد الرحالة ابن جبير بعض ذلك النشاط ، وسجله فى مذكراته ، دون أن يعلم بأخبار الهدنة التي أدت الى ذلك النشاط السلمي بين المسلمين والصليبيين ، ونصه :«واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم، وهي من الأمنة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً فى بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب » .

انقلاب سياسي عند الصليبيين يتزعمه حزب الحرب

غير أن تلك الهدنة لم تظل طويلا ، اذ تخللها من الجانب الصليبي ما عكرها تعكيراً شديداً ، مطلعه موت الملك الطفل بلدوين الخامس بمدينة عكا ، فى أغسطس سنة ١١٨٦ ، واتفاق حزب الحرب من زعماء الصليبيين على انتهاز الفرصة المتولدة عن تلك الوفاة لهدم مركز الوصي رايموند الطرابلسي وسياسته الهدنية ، باعلان صنيعتهم جاى لوزنيان ملكاً على بيت المقدس، بحق زواجه من الوريثة الشرعية لتلك المملكة ، وتم ذلك كله بمدينة المقدس أواخر الصيف من تلك السنة (١١٨٦) وصارت سياسته المبادرة الى حرب صلاح الدين هي السياسة الرسمية العليا بين الصليبيين .

واعتكف رايموند الطرابلسي فى مدينة طبرية غضبان أسفاً على ما حدث من انقلاب سياسي عام ربما وخمت عواقبه ، على حين نصح أصحابه من حزب الهدنة باعلان ولائهم الرسمي للملك الجديد جاى لوزنيان . غير أن الملك جاى ـ واسمه جي من المراجع العربية ـ لم يطمئن الى سلبية رايموند الطرابلسي ، واستشار فيما ينبغي عمله لاجتذابه الى سياسة الحرب طوعاً أو كرهاً ، فأشار عليه نصحاؤه بمهاجمة رايموند فى طبرية ، واخضاعه لمشروع المبادرة الى حرب صلاح الدين . وهنا عمد رايموند الى طلب نجدة من صلاح الدين ، فأنجده بكتيبة من عساكره الاسلامية ، ليستعين بها ضد ما عساه أن يحدث ، ووعده بارسال ما هو أكثر من ذلك فى المستقبل القريب .

ارناط يفسد الهدنة نهائياً

هكذا كانت الحال فى أوائل سنة ١١٨٧ . ثم جدّ على العلاقات الهدنية بين صلاح الدين والصليبيين عموماً ما أفسدها نهائياً ، وذلك حين اعترض البرنس ارناط قافلة تجارية مسافرة من القاهرة الى دمشق وهي مارة بحصنه واستولى عليها . وبدا نقض ارناط الهدنة العامة بين المسلمين والصليبيين، ورفض أن يقوم بأية تسوية أو ترضية لصلاح الدين . وللمرة الثانية أقسم صلاح الدين لينتقمن من ذلك البرنس المعتدى أقصى الانتقام .

صلاح الدين يعلن الحرب من دمشق وتجيئه الجيوش من كل بلد

والواقع أن صلاح الدين وجد فى ذلك الحادث فرصته ، فأعلن الجهاد من معسكره بدمشق ، وجاءت اليه جيوش من أنحاء مصر والشام والبلاد الفراتية ، وبلغت عدة تلك الجيوش عشرين ألفاً من الخيالة والمشاة .

عند ذلك أسرعت الزعامات الصليبية من حزب الحرب الى تسوية ما بينها وبين رايموند الطرابلسي من اختلاف ، وأعاد رايموند الى صلاح الدين كتيبته الاسلامية ، واجتمعت جيوش مملكة بيت المقدس وتوابعها من الأمارات والطوائف الصليبية فى مدينة عكا ، وسارت منها الى صفورية ، حيث انضم اليها رايموند الطرابلسي من طبرية ، بعد أن ترك الكونتيسة زوجته بتلك المدينة ومعها حامية احتياطية صغيرة ، شأنها فى ذلك شأن جميع المدن الصليبية التي أسهمت بقوتها الرئيسية فى الجيش الصليبي العام .

صلاح الدين يبدأ الزحف بعد صلاة الجمعة كعادته

أما صلاح الدين فجعل بداية زحفه الكبير نحو الأراضي الصليبية من عند تل العشترا ، واختار لذلك الزحف ساعة الصلاة من يوم الجمعة ١٧

ربيع الثـاني ٥٨٣ ، الموافق ٢٦ يونيـة سـنة ١١٨٧ . وكانت هذه عادته فى حروبه ، ايماناً منه واعلاناً بما فى دعاء الخطباء على منـابر صلوات الجمعة من بركة واستجابة .

وأخبرته عيونه وقتذاك بأن جيوش مملكة بيت المقدس وسائر الامارات والطـوائف الصليبيـة اجتمعت عند صفورية ، وانها على أهبة حـربية لقتال شديد . ولذا عبر صلاح الدين بجيوشه نهر الأردن عند قرية الصنبرة جنوبي بحيرة طبرية يوم السبت ٢٧ يونيـة ، وعسكـر حـول قـرية الأقحوانة ، على الضفة الغربية من نهـر الأردن وأقام هناك خمسة أيام ، أى حتى اليوم الأول من شهر يوليه ، آملاً أن الصليبيين سوف يتقدمون من صفورية عاجلا أو آجلا للهجوم عليه .

طبغرافية أرض المعركة

وهنا يتطلب الموضوع نظرة طبوغرافية فاحصة للمنطقة الواقعة بين قريتي صفورية والاقحوانية لمعرفة مدى ما للعوامل الجغرافيـة من تأثير فى مجرى الحوادث التالية . وخلاصة ذلك انهـا منطقة هضبية مرتفعة ، مسافتها خمسة عشر ميلا تقريباً بين القريتين، وتتخللها مرتفعات ومنخفضات صخرية لا ماء فيها أثناء الصيف ، وتحدها من ناحيتي الشمـال والشرق سلسلة من مرتفعـات جـرداء ، تنتهي منحـدرة الى بحيرة طبـرية ، ويخترقها طريق وعر قفر واصل الى مدينة طبرية نفسها . وينعرج هذا الطريق انعراجاً فرعيـاً نحو تل مزدوج غـريب الشكل ، اسمه قـرون حِطّين ، ثم ينحدر هذا الانعراج الى قرية حطين ، وهي على مسافة خمسة أميال تقريباً فى الشمال الغربي من مدينة طبرية .

استراتيجية صلاح الدين

وكان صلاح الدين عليماً بملامح تلك المنطقـة ومعابرها ومنعرج طريقها وندرة مياهها فى فصل الصيف ، وتمنى أن تتغلب الحماسة العمياء على الحكمة الاستراتيجية بين صفوف الصليبيين ، وأن يزحف الصليبيون نحوه على طول الطريق الوعر القفر من صفورية الى الاقحوانية . فلمـا أيقن بنكوصهم عن تلك المغـامرة عمـد هـو الى اغرائهم بالتظاهر بالزحف نحوهم ، بأن حـرك جيوشه الى قرية كفرسبت،وهي فىأقصى الطرف الجنوبي من المنطقة الهضبية ، حيث لم يزل الماء وفيراً لحاجات جيوشه ، وأخـذ يبعث السرايا الاستطلاعية من هناك صوب صفورية ، ايهامـاً بعزمه على الزحف نحوهم بين عشية أو ضحاها . غير أن تلك السرايا الاستطلاعية لم تغير من الخطة الصليبية الانتظارية شيئاً ، مما يدل على أن تلك الخطة ظلت هي المعمول بها حتى وقتذاك ، وأن الصليبيين ربما بقوا فى مواضعهم الى حين ينتهي موسم القتال .

صلاح الدين يزحف شمالا

هنا قرر صلاح الدين قراراً خطيراً جداً بأن يؤدى الى ما صبا اليه منتحريك الصليبيين نحوه من مواضعهم من صفوريـة ، وذلك بأن زحـف بجيوشه يوم الخميس ٢ يوليه شمالا الى رأس الطريق المرتفع المؤدى من صفورية الى طبريـة بحيث صارت طبرية وراء ظهـره على قول ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ ج١١ ، ص٣٥١ . وهناك رتب صلاح الدين جيوشهترتيبا استعدادياً نهائياً ، فجعل تقي الدين عمر ابن أخيـه على الميمنه ، ومظفر الدين كوكبرى صديقه القديم على المسيرة ، وتولى هو قيادة القلب ، حيث كان معه ابنه الشاب الأفضل علي .

ثم يستولي على طبرية

ثم عاد صلاح الدين جنوباً بجزء من عسكره ، وزحف بنفسه على طبرية نفسها . واستولى عليها فى ساعة من نهار . واعتصمت الكونتيسة زوجـة رايموند الطرابلسي بقلعة طبرية ، وأرسلت تطلب النجدة من الجيش الصليبي العام ، فأصدر الملك جاى الأمر بالزحف نحو طبرية ، وكان ذلك أقصى ما تمناه صلاح الدين .

والجيوش الصليبية تزحف نحو طبرية

وتحـرك الجيش الصليبي العـام من متنفس الصبح من يوم الجمعة ٣ يوليـه ١١٨٧ ، وكان الكونت (القمص) رايموند الطرابلسي على رأس المقدمة بحق أقدميته العسكرية ومسير الصليبيين فى أرضه وجغرافيته ، وتولى الملك جاى قيـادة القلب ، وهو الجيش الرئيسي ، ومعه البرنس ارناط صاحب الكَرَك ، كما تولى فارس مشهور

اسمه باليان قيادة المؤخرة ، حيث كانت طائفتا الاسبتارية والدادية ، ومعهم صليب الصلبوت ، أو الصليب الأعظم .

الصليبيون يتحركون الى طبرية كما أراد صلاح الدين

ولم يلبث صلاح الدين أن علم بحركة الجيش الصليبي العام ، وبتحقيق أركان حسابه الدقيق، فترك جنوده يعملون ما يشاءون حول قلعة طبرية ورجع ذلك الصباح الى جيشه الرابض على تعبئة واستعداد ، وجاءت اليه الأخبار بمدى الحركة الصليبية العامة لنجدة طبرية ، فلم يملك أن أظهر الفرح ، وقال فى عبارة مسجوعة منقولة عن أبي شامة من كتابه الروضتين (ج٢ ، ص٧٦ ـ الطبعة المصرية القديمة) ما نصه : « جاءنا ما نريد ، ونحن أولو بأس شديد ، واذا صحت كسرتهم ، فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع » .

وانفذ صلاح الدين من الخيالة الخفيفة اعداداً للرمي على الصليبيين بالنشاب من بين الصخور والثنايا على جانبي الطريق الوعر المرتفع ، والصليبيون يخترقون ذلك الطريق من خيالة ثقيلة كالمعتاد .

الصليبيون يقاسون قلة الماء والمسلمون يعسكرون حيث الماء وفير

واستمرت تلك المرحلة الابتدائية حتى بلغت الشمس الضحى، وان دارت حرارة الصيف شدة، والماء فى الطريق معدوم الوجود . ثم وصل الصليبيون عند الظهر الى موضع اسمه اللوبيا ، وهو منتصف المسافة بين صفورية وطبرية ، على وجه التقريب ، وبه بئر اعتقدها الصليبيون ذات ماء يكفي لاطفاء ظمأ الجند والخيل ، فقدروا الوقوف عندها ، وضربوا خيامهم حولها للراحة والسقيا والمبيت ، استعداداً للزحف نحو طبرية فى اليوم التالي،وهو يوم السبت ٤ يوليه ١١٨٧ ، الموافق ٢٥ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ . غير أن الصليبيين وجدوا أن بئر اللوبيا جافة أو تكاد ، كما رأوا أن الخيالة الاسلامية أخذتتسد الطريق الى مدينة طبرية وبحيرتها ذات المياه العذبة القريبة البعيدة . ولذا قضى الصليبيون ليلتهم فى ضنك من تعب السير فى النهار الحار ، وشدة العطش فى الليل الخانق مع قلة الأمل فيما سوف يأتي به الصباح .

وذلك على حين امتلأ المعسكر الاسلامي بقرية حطين ذات المياه الكريمة بحركة تنبىء عن جند كثيرة من خيالة ومشاة ، تنبعث من خيامها تكبيرات وتهليلات مرجوزة عالية بلغت أصداؤها أسماع الصليبيين فى جنح الظلام . وفى وسط تلك الحركة وتكبيراتها وتهليلاتها كان صلاح الدين ساهراً يرقب الطريق الى طبرية وبحيرتها العذبة بكتيبة من خيالته ، لمنع أية محاولة صليبية للوصول الى مورد يرتوون منه حتى الصباح ، ويرتب جيوشه للعمركة القادمة .

واهتم صلاح الدين أكبر الاهتمام بالخيالة الخفيفة وذخيرتها ، فأمر بملء جعاب الفرسان بالنشاب ، حتى بلغت كمية ما فرقه عليهم منها اربعمائة حمل من أحمال الجمال ، فضلا عن سبعين حملا أخرى جعلها على ظهور الجمال بمثابة الاحتياطي المتحرك ، وهذا التقدير منقول عن أبي شامة فى كتاب الروضتين ج٢ ، ص ٧٧

ويترك كاتب المقال مكانه لمصدر دقيق من مصادر التاريخ

وهنا يبرح كاتب هذه السطور مقعده من هذا المقال ، ويترك قلمه القصير وورقه الكثير وشأنهما، لينقل الى القارىء ، فيما تبقى من هذا المقال ، أدق وصف من أوصاف المؤرخين المعاصرين لما حدث يوم حطين ، وهو منقول من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج٢ ، ص ٣٥٢ وما بعدها من الطبعة الأوروبية) ، وذلك من باب التفضيل على سائر المراجع الأصلية العربية والأجنبية ، ومن باب التدليل على ما بذلك المرجع بالذات من دقة ورقة وسلاسة والتزام للحقيقة والتاريخ .

النص التاريخي لوقعة حطين

« أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر ، فركبوا وتقدموا الى الفرنج ، فركب

الفرنج . ودنا بعضهم من بعض . الا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا . فاقتتلوا واشتد القتال ، وصبر الفريقان ، ورمى خيالة المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر ، فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا . هذا والقتال بينهم ، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وراكبهم ، وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية ، لعلهم يَرِدون الماء .

فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم ، ووقف بالعسكر فى وجوههم ، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم ، والناس يأتمرون بقوله ، ويقفون عند نهيه . فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج ، فقاتل قتالا عجب منه الناس ، ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه . فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيرا .

رايموند الطرابلسى يحمل وجماعته معه يريد الخروج فالهرب

فلما رأى القمص (رايموند الطرابلسي) شدة الأمر على أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين ، فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم على المسلمين فى تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين . فلما رأى أن حملة الفرنج حملة مكروب ، علم أنه لا سبب الى الوقوف فى وجوههم ، فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه .

وكان بعض المتطوعة قد ألقى فى تلك الأرض نارا ، وكان الحشيش كثيرا ، فاحترق . وكانت الريح ، فحملت حر النار والدخان اليهم . فاجتمع عليهم العطش ، وحر الزمان ، وحر النار والدخان ، وحر القتال .

فلما انهزم القمص سقط فى أيديهم ، وكادوا يستسلمون ، ثم علموا انهم لا ينجيهم من الموت سوى الاقدام عليه ، فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم ، لولا لطف الله بهم . الا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون الا وقد قتل منهم (عدد كبير) . فوهنوا لذلك وهنا عظيما . فأحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها ، فارتفع من بقى من الفرنج الى تل بناحية حطين ، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا أنفسهم به . فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما أرادوا، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير . وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت ، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم ، فكان أخذه من عندهم من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك . هذا والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم المشهورين ، والشجعان المذكورين .

ولد صلاح الدين يحكي عن أبيه

فحكى لي عن الملك الأفضل علي ولد صلاح الدين ، قال كنت الى جانب أبي فى ذلك المصاف (القتال) ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على مَن بازائهم من المسلمين حتى الحقوهم بوالدى. قال فنظرت اليه وقد علته كآبة، واربدّ لونه ، وأمسك بلحيته،

وتقدم وهو يصيح فى جند المسلمين **((كذب الشيطان))**. قال فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا ، فصعدوا الى التل ، فلما رأيتُ الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي **((هزمناهم !!))** . فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، وألحقوا المسلمين بوالدى ، وفعل هو مثلما فعل أولا . وعطف المسلمون عليهم فالحقوهم بالتل ، فصحت أنا أيضا **((هزمناهم !!))** فالتفت والدى اليَّ وقال **((اسكت !! ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة))** .

وسقطت خيمة الملك

قال فهو يقول لي ذلك واذا الخيمة قد سقطت! فنزل السلطان (عن فرسه)، وسجد شكراً للهتعالى، وبكى من فرحه. وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص من بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا الى الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسواعلى الأرض ، فصعد المسلمون اليهم ، فألقوا خيمة الملك (الى الأرض) .

الذين وقعوا فى الأسر

وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك (جاى) وأخوه والبرنس ارناط صاحب الكرك ، ولم يكن للفرنج أشد منه عداوة للمسلمين . وأسروا أيضا صاحب جبيل ، وابن هنفرى ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنا . وأسروا أيضا جماعة من الداوية ، وجماعة من الاسبتارية .

وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لا يظن أن المسلمين أسروا واحداً ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا .

وما أصيب الفرنج منذ جاءوا الى فلسطين ، وهو سنة احدى وتسعين واربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة .

ملك الفرنج وأعوانه فى خيمة صلاح الدين

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين فى خيمته ، وأحضر ملك الفرنج عنده والبرنس صاحب الكَرَك. وأجلس صلاح الدين الملك (جاى) الى جانبه ، وقد أهلكه العطش ، فسقاه ماء مثلوجا، فشرب ، وأعطى فضلة (من الماء) الى البرنس صاحب الكرك ، فشرب . فقال صلاح الدين ان هذا الملعون لم يشرب الماء بأذني ، فينال أَماني ، ثم كلم (صلاح الدين) البرنس ، وقرعه بذنوبه ، وعدد عليه عوراته ، وقام اليه بنفسه ، فضرب رقبته . وقال : **كنت نذرت دفعتين أن أقتله ان ظفرت به ، احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل (القافلة) غدراً .**

فلما قتله صلاح الدين ، وسُحب جثمانه وأُخرج ، ارتعدت فرائص الملك جاى ، فسكَّن صلاح الدين جأشه وأمَّنه .

وأما القمص صاحب طرابلس فانه لما نجا من المعركة كما ذكرنا ، وصل الى صُور ، ثم قصد طرابلس ، ولم يلبث الا أياماً قليلة حتى مات غيظاً وحنقاً مما جرى على الفرنج ، يوم حطين . ■■

محمد مصطفى زياده